الفصل 29
الرجل الأخير

لم أتوقف طوال أيام الصيف المشبعة بالرطوبة، وأنا في سجن الإصلاح، عن التفكير في كل هذا الجنون المصاحب للورطة التي وقعت فيها، كان المعلقون يزعقون، والمهرجون يستهزئون، والجميع يكيل الاتهامات والانتقادات؛ لفشلي في اكتشاف مخطط الهجوم على مركز التجارة العالمي يوم الحادي عشر من سبتمبر.

شاهدت ذلك كله على التلفاز في السجن، وأنا لا حول لي ولا قوة، كان كل ما يُعْرَض مجرد مشاهد من المسرح السياسي الحقيقي الذي اعتادته واشنطن.

كان هذا كله يحدث، وأنا قابعة في السجن - بعدما أعلنوا أنَّني غير أَهْلٍ عقليًّا للمثول أمام القضاء- لأنَّني كنت أُؤمن ببراءتي لعدم توافر الدليل ضدي [542].

وتأسيسًا على ذلك، فقد قرر طبيبان نفسانيان - اعترفا أنَّهما لم يلاحظا على سلوكي أي أعراض لمرض عقلي- أنَّني «لا أُقدِّر خطورة التهم المُوجَّهة إليَّ، وهذا الإقرار من جانبي قد يكون ضروريًّا لجعلي أُسهِم في الدفاع عن نفسي»، ولكنَّني اختلف معهما في الرأي؛ فإذا وجد مَن يعاني اضطرابًا عقليًّا فهو الإدارة الأمريكية نفسها التي تحاول التملص من مسؤوليتها عن القرارات التي اتخذتها قبل الحرب على العراق، وكنت في لحظات الغضب أسأل الحراس: أليس من الأفضل حقن قادة الكونغرس بالهالدول لعلهم يكتسبون بعض المصداقية عند اتخاذ القرارات؟

ويا للأسف، فإنَّ هذا غير ممكن لأنَّهم كانوا في السُّلْطة، أما أنا فلا سلطة لي، فقد كنت حيث أرادني قادة الحزب الجمهوري أن أكون؛ محتجزةً مقيَّدةً، حتى يفعلوا ما يريدون من غير أن يتحداهم أي إنسان.

وما أغضبني هو أنَّ الجمهوريين أدركوا - بعد إقصاء العراق عن طريقهم- أنَّه يمكنهم إلهاء الناخبين الغاضبين عن طريق التبجُّح بنجاح أداء قيادتهم في مكافحة الإرهاب، لكنَّ إنجازاتهم كانت في الحقيقة أقل مما تباهوا به، وما قيمة ذلك؟ لو أصدر القاضي قرارًا بتخديري قسرًا، لكانت لعبة الحزب الجمهوري قد اكتملت، ولحملوني وزر أخطائهم، وما استطعت الخروج من السجن ألبتة لفضح أكاذيبهم.

ولكن، كيف استطاع الجمهوريون تبرير هذا الكذب الفاضح؟ لقد فعلوا ذلك باستخدام منطق فاسد بسيط، هو أنَّ الاستخبارات وُجدت أصلًا لحماية القيادة قبل أي شيء آخر، وأنَّ على رجال الاستخبارات أن يعملوا على تلميع صورة القادة؛ سواء استحقوا ذلك أم لا، حتى لو كانت الحقيقة هي الضحية، فالمهم هم السياسيون، وليس الشعب.

أما فيما يتعلق بسياسة مكافحة الإرهاب فقد تحولت إلى مسرحية أبطالها أعضاء الكونغرس، وأصبحت هذه السياسة جوفاء على أرض الواقع، وأضاعت الكثير من الفرص، لماذا لا نصيد عصفورين بحجر واحد؟

الفعل أفضل من القول، هذا أمر متعارف عليه، إلا أنَّ الإدارة الأمريكية لا تعترف بذلك. ولسوء طالعي، فإنَّ الحزب الجمهوري كان يحظى بالأغلبية في الكونغرس والبيت الأبيض. ولكن، كيف يمكن إنهاء ميزان القوى لصالح الجمهوريين أو الديمقراطيين؟ كان الجمهوريين يؤمنون بأنَّ أي عمل يحمي سياستهم الخاصة بالأمن القومي، هو عمل مشروع حتى لو انتهك الدستور؛ لذلك كان سجني وتهديدي بالتخدير القسري إستراتيجيةً مناسبةً لبقائهم في السُّلْطة، وهذا هو الهدف الرئيس، وسأكون الضحية على مذبح الطموح السياسي.

لنكن واقعيين، لقد كان كذبهم أقوى من صدقي، وكانت هذه هي المشكلة في قضيتي.

وفي فصول هذه الملهاة جميعها، كان القاضي موكاسي هو العامل المجهول الغامض، وكان مصيري كله يعتمد عليه، وكان هو الوحيد القادر على تفسير هذا التناقض في التقارير

المتضاربة، وكنت أنا الضحية، لقد توقعنا أن يصدر القرار في أسابيع قليلة، لكنَّنا انتظرنا أربعة أشهر.

كان القاضي موكاسي يوشك أن يتقاعد؛ ما يعني أنَّ الحكم في قضيتي سيكون هو آخر حكم يُصدِره في تاريخه المهني [543].

لحُسن الطالع، فإنَّ المسؤولين السابقين عني لم يتركوني في هذه المعمعة أتدبر أموري وحدي؛ فقد أخبرني الدكتور فيوز وهوفين قبل سنوات بما يجب عليَّ فعله إذا أُلقي القبض عليَّ، وهو أن أقول للقاضي كل شيء. لكنَّني لم أفعل لأنَّني توقعت من المحامي أن يقوم بذلك، واعتقدت أنَّ الأطباء النفسانيين الأغبياء سيُصدِرون تقريرًا دقيقًا عن حالتي.

أما الآن فقد تلقى القاضي موكاسي ما يكفي من المعلومات عن طريق الرسائل التي كانت تصل إليه من أصدقائي، فأصبحت لديه صورة واضحة عن روايتي [544]. كان يمكنه رؤية الأطراف القوية المصطفّة ضدي، لكنَّنا لم نستطع أن نتصور كيف يمكنه أن ينهي هذه اللعبة، وقد يخضع لرغبات الحكومة، ولن يقاوم، وهذا ما كان يرعبني.

إنَّ أي قاضٍ كبير مثل موكاسي يُفكِّر في كيفية جعل قراراته تمثل سابقةً لقضايا أخرى مستقبلًا، لكنَّ القضاة كافةً لا يفعلون ذلك. وما كان يمكن لقاضٍ لا يتمتع بخبرته وبصيرته أن يضع إستراتيجيةً لمنع تخديري القسري، وتخليصي من قبضة قانون الباتريوت في آنٍ معًا.

كان صيف نيويورك حارًا ورطبًا، ومرَّت الأيام وأنا أنتظر في قلق وخوف، ولم أكن لأصمد لولا دعم السجينات الأخريات، خاصةً صديقتي اليابانية سارة ياماساكي، مغنية الأوبرا التي كانت تتحفنا بأدائها على سطح السجن.

كان السطح فوق الطابق الحادي عشر، ويطل على مساحات خضراء في مانهاتن؛ ما يجعل السجينات يشتقن إلى الخضرة والشجر والحرية.

في عصر أحد الأيام قالت إحدى النساء المتدينات إنَّها تصلي لله لكي يبعث لنا وردًا، فضحِكْتُ، ثم أضافت: «إنَّ الله على كل شيء قدير، انتظرن، وسترين». وفجأةً، هبت ريح قوية، وطارت في السماء غيمة من زهور القرانيا البيضاء، ثم نزلت على السطح وفي ساحة السجن،

لم نُصدِّق ما حدث، فأخذنا نتسابق لجمعها ونحن في فرح غامر، وتلك المرأة تقول لنا: «لقد أخبرتكن أنَّ الله سيبعث لنا وردًا!». ثم نظرت إليَّ قائلةً: «إنَّ الله معك يا سوزان، وهو لن يسمح لهم بإيذائك، حاولي أن لا تخافي». ولكن، مَن يده في النار ليس كمَن يده في الماء؛ فعندما تكون محجوزًا في سجن أربعة أشهر، فإنَّ هذه المدَّة تبدو لك سرمدية، خاصةً إذا كنت تنتظر مثل هذا القرار الحاسم الذي سيُؤثِّر فيما بقي من حياتك.

في عصر ذلك اليوم ذهبت لأعيد رواية كنت قد استعرتها من مكتبة السجن عن جاسوس يساق إلى كوخ، ثم يتولى طبيب نفساني تابع لوكالة الاستخبارات المركزية تخديره؛ لمنعه من الحديث عن عملية تُحاك خيوطها في السفارة السوفيتية في أثناء الحرب الباردة.

بدا لي كما لو كانت الرواية تحكي قصتي، ثم نظرت باتجاه أحد الحراس، وسألته إن كان المحامي قد سأل عني، فأجاب بالنفي. كان الحراس قد سمعوني وأنا أسأل هذا السؤال من قبلُ، كانوا يواسونني، ويُؤكِّدون لي أنَّهم سيبلغونني فورًا إذا استجد جديد.

في المساء، ذهبت لأستحم بعد العشاء هربًا من ثرثرة السجينات، وطلبًا لشيء من الخصوصية. في تلك اللحظة غير المتوقعة جاءت الرسالة، وفجأةً، أخذت إحدى زميلاتي في الزنزانة تدق باب الحمام، قائلةً إنَّ المحامي ينتظرني، وإنَّ الحراس قد جاؤوا ليأخذوني إليه.

خرجت وأنا مبتلة، ولم أنتظر لأمشط شعري وأخذت أركض مع الحراس باتجاه قاعة الزوار، عندما وصلت إلى حيث كان يجلس سام تالكين، وقفنا مذهولين، وكل واحد منا ينظر في عيني الآخر، ثم قال بهدوء: القاضي موكاسي حكم لصالحك، ستعودين إلى البيت.

كان تالكين مذهولًا مثلي، فبجرة قلم من القاضي انتهى هذا الكابوس الطويل بعد أحد عشر شهرًا قاسية في السجن.

سجدت لأشكر الله؛ لأنَّه أنقذ عقلي وجسدي وروحي. وفي الحقيقة، فإنَّني لم أستطع الوقوف ثانيةً على قدمي.

صحيح أنَّ سمعتي قد تشوهت، كما أراد قادة الحزب الجمهوري، ولكنَّ عقلي وجسدي وروحي - وهي كل ما يهمني- لا تزال سليمةً، كدت أطير من الفرح، كانت السجينات قد خلدن

إلى النوم، ولم أجد مَن يشاركني فرحي، لكنَّني أعرف أنَّ السجناء يفرحون إذا أُطلِق سراح أحدهم، ولكنَّهم يحزنون في الوقت نفسه. وفي الأحوال كلها، فأنت لا تنساهم، خاصةً أولئك الذين وقفوا إلى جانبك، وستظل تتذكَّرهم طوال حياتك.

في الصباح جاؤوا ليأخذوني إلى المحكمة، وفي الساعة الحادية عشرة من يوم الثامن من شهر سبتمبر عام 2006م، وفي آخر يوم عمل له في القضاء، أعلن القاضي موكاسي رفض طلب الادعاء بتخديري قسريًّا، وأطلق سراحي بكفالة نصف مليون دولار [545].

لوَّحت له بيدي لأشكره، فارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتيه، وكان هذا آخر ما رأيته منه بعدما جاء الحاجب ليخرجني من القاعة. أود أن أعترف هنا أنَّ القاضي موكاسي هو الذي أنقذ حياتي، وأنا أُسميه بطلي، وهذا ما كان يدهش كثيرين؛ إنَّه رجل لا يشك أحد في نزاهته والتزامه بالقانون، وفي قضيتي، فقد كان محاطًا بمجموعة من الأوغاد يكذبون على المحكمة في كل فرصة تتاح لهم، وأنا أُدين له بحياتي. لقد أصبح بطلي في هذه المؤامرة القانونية الشريرة، فلولا ذكاؤه وفراسته لتحطَّمت روحي وجسدي بالتخدير القسري، والسجن إلى أجل غير مسمى، وهذا هو (الإنهاء مع التحامل الشديد)، هذا هو الإعدام من دون إراقة الدم.

وبالرغم من كل المكر والخداع الذي كان يحيط بالقاضي موكاسي، فإنَّه حقق شيئًا عظيمًا لم أكن أحلم به، هو تفوقه على الأطباء النفسانيين، وإصداره حكمًا سيحمي مزيدًا من الأمريكيين، ولست نادمةً على قضاء أربعة أشهر إضافية في السجن في انتظار هذا الحكم [546].

لقد استخدم بذكاء حجة المدعي العام المطالبة بالتخدير القسري لوقف إطالة أمد محاكمتي، حيث تغاضى عن الأدلة السرية، واعتمد على الأدلة المتوافرة التي تُبرِّر هذا التخدير، ليتساءل: هل كانت أنشطتي ترقى إلى مستوى النشاط الإجرامي؟ فإذا كان الادعاء العام محقًّا بخصوص حالتي العقلية، فمن المستحيل أن أُقدِم على عمل إجرامي.

كانت تلك الطريقة الوحيدة لحمايتي.

لقد بنى القاضي موكاسي قراره برفض التخدير القسري على ثلاث نقاط: أُولاها أنَّني لم أكن أُمثِّل خطرًا على نفسي أو على الآخرين، وثانيتها أنَّ الأدوية لن تُحسِّن جوهر حياتي اليومية، وثالثها أنَّ القاضي كان يشك في جدية الادعاء العام في عرض القضية للمحاكمة [547].

وبالرغم من هذا القرار الحاسم، فإنَّ القاضي موكاسي -للأسف- أبقى على استنتاج عدم الأهلية القانونية للمثول أمام المحكمة، وقد استند قراره إلى بعض آرائي الروحانية، وإيماني بالله والملائكة والنبيين، واهتمامي بالتصوف، وقد أبلغته في إحدى رسائلي أنَّه لن يضرني إذا استند في قراره إلى آرائي الدينية، ولن يُحطِّم إيماني، وكل ما كان يهمني في ذلك الوقت هو أن أنجو من التخدير القسري، مع أنَّ وصفي بغير الأهل عقليًّا كان إهانةً لي، والحقيقة أنَّه تصرف وفقًا لما قلت له أنَّني على استعداد لقبوله.

أنا على قناعة بأنَّ القاضي موكاسي رأى أنَّ تحريري من السجن، وتبرئتي من تهمة سيئة، مع إبقاء انعدام الأهلية القانونية، كان سبيله الوحيد لقتل القضية؛ وهذا ما أوصلنا إليه قانون الباتريوت: الاختيار بين انعدام الأهلية القانونية، أو تمزيق الدستور والإجراءات القانونية المرعية، ثم انتهاك حقوق المتهمين المحمية في النظام القضائي.

ونظرًا إلى وجودي في السجن، من دون أمل في عقد محاكمة؛ فإنَّني ومعظم المتهمين قد نقبل بهذا الخيار، مع إنَّه غير منصف إلى حدٍّ كبير.

خلاصة القول إن القاضي موكاسي منع الادعاء العام من تعذيبي جسديًّا بالهالدول، وضمن أنَّ وزارة العدل ستتوقف عن ملاحقتي لمعرفتي بحقيقة التحذير من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ومشروع السلام العراقي.

لقد (شُق الطفل إلى نصفين)؛ بأن راعى توازنًا قانونيًّا لم يكن مرضيًا لي، لكنَّ المهم في لعبة قانون الباتريوت السيئ هو أنَّ القاضي استخدم الأدوات المتوافرة لديه، فأنقذ حياتي وحريتي.

ومثلما قلت من قبل، فإنَّ هذا الرجل هو بطلي.